# جماعة إخوان الصّفا
# وأثرهم في تطوير القصة على لسان الحيوان *

د. محمد غفراني الخراساني **

١- تمهيد: قبل أن نتحدّث عن الدور الذي أدّاه إخوان الصفا في تطوير القصة على لسان الحيوان في اللغة العربيّة وإخراجها من المضامين الأخلاقيّة والاجتماعيّة التي تتمثّل في حكايات كتاب «كليلة ودمنة» إلى مضامين فلسفيّة في كتابهم «رسالة الحيوان» نقف برهةً لنلقي نظرةً عابرة على تاريخ نشأة هذه الجماعة والأهداف التي كانت تدعو إليها من طريق نشر رسائلها في البيئة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ، تلك الرسائل التي أحدثت دويًّا هائلًا ولعبت دورًا عظيمًا في توجيه التيّار الفكريّ الإسلاميّ مدّة هذه الحقبة من التاريخ.

٢- أصل اسم «إخوان الصفا» وهل اقتبس من «كليلة ودمنة»:

لقد وردت لفظة إخوان الصفا منذ القِدم في شعر اللغة العربية ونثرها، فمن العصر الجاهليّ وردَ شعرًا قولُ أوس بن حجر يذمّ طفيل بن مالك الملقّب بمُلاعب الأسنة:

لعمرك ما آسى طفيل بنفسه  بني عامر إذ ثابت الخيل تدعي

---

* نُشرت هذه المقالة لأوّل مرّة في مجلّة الدراسات الأدبيّة، السنة الخامسة، العدد٢، ص ١٤٥-١٦٥.
لقد أعدنا نشر هذه المقالة القديمة لنحفّز الباحثين على استخراج نتائج أخرى بالموازنة بين رسائل إخوان الصفا وبين كتاب كليلة ودمنة، وبين رسائل إخوان الصفا، والنصوص الحكميّة والعرفانيّة السابقة واللاحقة، وسيكون لهذه الدراسات ونتائجها أهميّة بالغة في ميدان الدراسات المقارنة.

** مدرس اللغة الفارسيّة في جامعة الأزهر وجامعة الإسكندريّة، مصر.

وودّع إخوان الصفاء بقُرزل يمرّ كمريخ الوليد المفزّع[1]

ومن ذلك أيضًا قول أبي حناك البراء بن ربعي العقعسي:

أبَعْدَ بَني أمّي الذين تتابعوا أُرجّي الحياة ام من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطي ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رُزئتهم وما الكفّ إلّا إصبع ثمّ إصبع[2]

وقد روى أبو حيان في كتابه «الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق» البيتَ الأخير وجعله ثالثًا لبيتين آخرين لم يذكرهما أبو تمام ولم يذكر أبو حيان كذلك اسم الشاعر فقال: وقال شاعر:

لعمرك إنّي بالخليل الذي له عليّ دلال واجب لمفجّع
وإنّي بالمولى الذي ليس نافعي ولا ضائري فقدانه لممتَّع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم وما الكفّ الّا إصبع ثم إصبع[3]

وجاءت كلمة إخوان الصفا أيضًا في نصوص غير جاهلية شعرًا ونثرًا، فمن الشعر ما أنشده اليزيدي:

ألا إنّ إخوان الصفاء قليل فهل لي إلى ذاك القليل سبيل
قس الناس تعرف غثّهم من سمينهم فكلٌ عليه شاهد ودليل

وورد نثرًا قولُ عبد الله بن المقفّع في باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنة: «قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف حدثني أن رأيت عن إخوان الصفا كيف يبتدئ

---

١. نقائض جرير والفرزدق، طبعة ليدن، مج١، ص ٣٨٦. وقرزل بضم القاف والزاي المعجمة اسم لفرس طفيل بن مالك، والمقزع بتشديد الراي المعجمة وفتحها: الفرس السريع العدو، ويمالق أيضًا على من كان شعر رأسه رقيقًا متفرقًا، وكان أوس بن حجر من قبيلة تميم وهو شاعرها وشاعر مضر في الجاهليّة غير مدافع، ويعدّه أبو عبيدة من شعراء الطبقة الثالثة في الجاهليّة بينما يعدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية، وكان أوس هذا استاذ زهير في مذهب التصنيع والتهذيب في الشعر (الأغاني - طبقات الشعراء لابن سلام - الشعر والشعراء لابن قتيبة - الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين).

٢. ديوان الحماسة لأبي تمام، طبعة محمود توفيق بالقاهرة، ج ١، ص ٥٧-٣٥٨، تحقيق محمد عبد القادر سعيد الرافعي، طبعة القاهرة عام ١٣٢٢ هـ، مج ١، ص ٢٥٢، ومطبعة السعادة بالقاهرة العام ١٩٢٧ م، ج ١، ص ٣٥١. وجاء اسم الشاعر في شرح ديوان الحماسة للتبريزي (ج ٢، ص ٣٢٥) «أبو حبال» وهو محرّف أبي حناك كما يصرح به أبو هلال الأحدب، وأبو حناك هذا أحد شعراء الحماسة، وأغلب الظن أنّه مخضرم، غير أنّه لم يترجم له شرّاح الحماسة.

٣. الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق، الطبعة الأولى بالقاهرة، عام ١٣٢٣، ص ١٣٣.

تواصلهم ويستمتع بعضهم بعضًا»، قال الفيلسوف: إنّ العاقل لا يعدل بالإخوان شيئًا فالإخوان هم الأعوان على الخير كلّه، والمؤاسون عندما ينوب من المكروه». ومن هنا اختلف الباحثون في صلة هذه التسمية بـ«كليلة ودمنة» لابن المقفع، فذهب فريق ومنهم المستشرق «جولد زيهر»، إلى أنّ هذا الاسم قد اقتُبس ممّا جاء في قصّة الحمامة المطوقة[1]، وفريق آخرومنهم الباحث العربيّ أديب عباسي ينفي أن يكون ورود هذه الكلمة في قصّة الحمامة المطوقة سببًا في تسمية جماعة إخوان الصفا، فإنّ إخوان الصفا جرت عادتهم على أن يأتوا بالمَثَل لكلّ فكرة يعالجونها، ويعرضون لها بالبحث في رسائلهم، ويفسرهذا سرّاهتمامهم بقصة الحمامة المطوقة التي سردوها في الرسالة الثامنة من القسم الثاني من رسائلهم. وإنى أؤيّد هذا الفهم إذ إنّ التركيب (إخوان الصفا) قديم وقد سبق الشعراء الجاهليون ابنَ المقفع إلى استعمال التركيب (إخوان الصفا) كما أسلفنا، وكلّ ما هنالك أنّ جماعة إخوان الصفا حينما نقلوا قصّة الحمامة المطوقة في رسائلهم وتصرّفوا في مغزاها أستأنسوا بهذا التعبير الذي ورد في هذه القصّة فاتخذوه رمزًا للاتحاد والتعاون والاتفاق، تلك المفاهيم التي كانت تربط بعضهم ببعض برباط وثيق من المحبة والإخاء، وتحيطهم بسياج متين من السرّيّة والكتمان وإذا قلنا إنّ تركيب «إخوان الصفا» في قصة «الحمامة المطوقة» هوالذي أوحى لهم باختياره اسمًا لجماعتهم فعلينا إذًا أن نلتمس لكلّ تركيب يرادف هذا التركيب في المعنى أصلًا اقتبست منه كلمات «إخوان الصدق» و«اخوان الوفاء» و«إخوان الثقات» و«إخوان الحفاظ» وكلّها وردت في اللغة العربيّة نثرًا وشعرًا غيرأنّه لم يقل أحد بذلك، مهما كان من أمرفإنّ ما ذكرته في هذا المقال ما هوإلّا مجرد فروض علميّة في ضوء دراستي لرسائل إخوان الصفا، وخلاصة ذلك كله أنّ التركيب (إخوان الصفا) معروف في اللغة العربيّة من العصر الجاهليّ، ولكن اتخاذ هذا التركيب اسمًا لجماعة معينة لها أهداف خاصّة هوالجديد في الأمر، وهذا لا يعني أنّه غيرمألوف في التعبيرالّلغويّ، ولا أنّه مقتبس من مصدر معين مثل كليلة ودمنة كما زعمه المستشرق «جولد زيهر» Gold zeiher.

١. ضحى الإسلام، الطبعة السادسة بالقاهرة، ج ١، ص ٢٣١.

٣- سرّ تسمية إخوان الصفا: لفظ الصفا في اللغة العربيّة يدلّ على التصافي والمودّة والمحبّة؛ وجاء في لسان العرب «الصفوُ والصفاءُ بالمدّ نقيض الكدر، وصفوةُ كلّ شيءٍ خالصُهُ من صفوة المال وصفوة الإخاء، والصفوة بالكسر خيار الشيء وخلاصته وما صفا منه». وفي ضوء التخريج اللغوي يكون إخوان الصفا هم الأصدقاء الذين تجمعهم المودة والإخاء، ويقول المستشرق جولد زيهر: «إنّ أخا الصفا بحسب الاصطلاح العربيّ تعني الذي صفت نفسه، وخلصت سريرته كقولهم: (يا أخا المروءة) وهو رأي محتمل وإن كان ليس قاطعًا، ويقول المستشرق الفرنسي «دي فو» في كتابه les penseurs de l'islam: «هل لهذه التسمية صلة بكلمة «فيلسوف» التي ترد في اصطلاح الفيثاغوريّين؟ فكلمة «أخ» تقابل الشطر الأوّل من كلمة «فيلسوف» وهو «فيلو» وكلمة «صفا» تقابل الشطر الثاني من الكلمة وهو «سوفيا»، وعلى ذلك يكون معنى الاسم «محبو الحكمة» وهو رأي يقوم على الحدس والخيال. ويقول الباحث العربيّ أديب عباسي: «إنّ هناك رأيًا آخر لإخوان الصفا أنفسهم في أصل التسمية، فقد جاء في الجزء الرابع من رسائلهم ما نصّه: «وإنّما سمّينا رسالتنا هذه رسالة السحر ليستدّل إخواننا على الأسرار الخفيّة، وليكونوا إذا بلغوا معالي العلوم ذوي غنى عن الحاجة إلى من سواهم في جميع ما يحتاجون إليه من أمر معيشة الدنيا، فإذا وصلوا إلى هذه المرتبة صحّ لنا أن نسمّيهم بإخوان الصفا[١]. ويقول أديب عباسي «فإخوان الصفا كما يعرّفون أنفسهم في رسائلهم هم جماعة حذقوا علوم الدين والدنيا معًا، واستغنوا بها عن الحاجة إلى من سواهم». وهذا الرأي قد يكون أقرب إلى الحقيقة، وتؤيّده نصوص كثيرة وردت في رسائل إخوان الصفا فمنها قولهم: «ينبغي أن نبيّن كيف يكون تواصل إخوان الصفا، وكيف تكون معاونة بعضهم بعضًا في طلب معيشة الدنيا»[٢]؛ ومنها أيضًا قولهم «... فهكذا ينبغي أن يكون تعاون إخوان الصفا في طلب صلاح الدين والدنيا، وذلك أنّ معاونة الأخ ذي المال الأخ ذي العلم بماله، ومعاونة الأخ ذي العلم للأخ ذي المال بعلمه



١. انظر مقال أديب عباسي في مجلة الرسالة المصريّة، العدد ٣٤، العام ١٩٣٤م.
٢. رسائل إخوان الصفا، طبعة القاهرة، ج ٤، ص ١٠٢.

في صلاح الدين والدنيا جميعًا، كمثل رجلين اصطحبا في الطريق في مفازة، أحدهما بصير ضعيف البدن معه زاد ثقيل لا يطيق حمله، والآخر أعمى قوي البدن وليس معه زاد، فأخذ البصير بيد الأعمى يقوده خلفه، وأخذ الأعمى ثقل البصير فحمله على كتفه، وتواسيا بذلك الزاد، وقطعا الطريق، ونجوَا»[1]. ومحور هذا الرأي أنّ الصفا من صفاء السريرة ونفوذها إلى دقائق العلوم والحكم والآداب ومختلف ألوان الثقافات، ونستنتج من هذه النصوص أيضًا أنّ مذهب جماعة إخوان الصفا كما يدلّ عليه اسمهم بُني على المواساة وتعاون بعضهم مع بعض في أمر المعاش والمعاد.

١- نشأة إخوان الصفا: أجمع المؤرّخون على أنّ جماعة إخوان الصفا قد نشأت في أواخر القرن الرابع الهجريّ في مدينة البصرة ويقول أديب عباسي: «والغريب أنّ ابن تيميّة دون باقي المؤرّخين الذين وقفنا عليهم يذكر أنّ رسائل إخوان الصفا صُنّفت قريبًا من بناء القاهرة، فإذا صح هذا الزعم فإنه يرجّح أن يكون مركز هذه الجماعة القاهرة وتكون جماعة البصرة فرعًا منها».

ويبدو أنّ الباحث العربي قد التبس عليه لفظ البناء، فتوهم أنّه بمعنى المكان، في حين أن ابن تيميّة يقصد من قوله: «قريبًا من بناء القاهرة» قرب الزمان لا قرب المكان»[2]. إذ من المعروف أنّ مدينة القاهرة قد بدأ في بنائها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي في العام ٣٥٨ هـ[3]؛ فتكون جماعة إخوان الصفا قد قامت قبل ذلك أو بعد ذلك بقليل.

٢- زعماء إخوان الصفا: اختلف المؤرّخون في أسماء مؤسّسي هذه الجماعة، وقد ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» أسماءَ خمسة منهم وذلك في



١. رسائل إخوان الصفا، طبعة القاهرة، ج ٤، ص ١١٧. وقد ورد هذا المثل في باب عرض الكتاب لكليلة ودمنة مع شيء مع الاختلاف في العبارة والمغزى، وكان إخوان الصفا معجبين بكتاب كليلة ودمنة، ونقلوا عنه أمثالًا وحكايات كثيرة في رسائلهم، وخاصة قصة الحمامة المطوقة التي تأثروا بها تأثرًا كبيرًا، وسنبيّن ذلك في معرض الحديث عن رسالة الحيوان.

٢. يقول ابن تيمية: «فإنّه لا نزاع بين العقلاء أنّ رسائل إخوان الصفا إنّما صنّفت بعد المئة الثالثة في دولة بني بويه قريبًا من بناء القاهرة» (بغية المرتاد المعروف بالسيمينية، طبعة القاهرة، عام ١٣٢٩هـ، ص ٥٩).

٣. تاريخ القاهرة، تأليف شحاتة عيسى إبراهيم، ص ١١.

معرض الحديث عن سيرة زيد بن الرفاعة وهو أحد زعماء هذه الجماعة، فيقول: «وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلًا، وصادق بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي -ويعرف بالمقدسي- وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوفي، وغيرهم، فصحبهم وخدمهم».[1]

وعلى الرغم من ذلك فإنّ الغموض لا يزال يكتنف شخصيّة زعماء إخوان الصفا بحيث كان من الصعب الوصول إلى معرفة أسمائهم، والاهتداء إلى معرفتهم.

٣-طبقات جماعة إخوان الصفا: تتكوّن جماعة إخوان الصفا من أربع طبقات، وهي في ذلك ذات صبغة صوفيّة واضحة ...

الطبقة الأولى: وهي تتألّف من شبّان تتراوح أعمارهم ما بين خمسة عشرة سنة وثلاثين سنة تنشأ نفوسهم على الفطرة، وهم الذين يدعون في الرسائل بالإخوان الأبرار حيث إنّهم في مرحلة النشأة والتعليم، ويجب عليهم الانقياد لأساتذتهم، والانصياع لأوامرهم من دون مناقشة أو جدل.

الطبقة الثانية: وهي تتألّف من رجال أعمارهم بين الثلاثين والأربعين يتلقّون الحكمة، ومهمّتهم رعاية الإخوان ومساعدتهم وهم الذين يطلق عليهم في الرسائل: الإخوان الأخيار الفضلاء.

الطبقة الثالثة: وهي تتألّف من أفراد يتراوح سنّهم بين الأربعين والخمسين، ويسمح لهم بمعرفة النواميس الإلهيّة وشرائع العالم المقدّسة معرفةً تطابق درجتهم، وأنّهم أصحاب الأمر والنهي، وهم الذين يسمّون في الرسائل بالإخوان الفضلاء الكرام، وكان لهم الدور الرئيسيّ في تأليف الرسائل والعمل على نشرها.

الطبقة الرابعة: وهم الذين تزيد أعمارهم على الخمسين، وهي أعلى مراتب السلوك التي يمكن الوصول إليها إذ يعتقد إخوان الصفا أنّ الرجل إذا نيّف على الخمسين من عمره ينخرط في سلك الموجودات المجرّدة ويرتقي إلى مقام العليّين وعالم الشهود، فيرى حقائق الأشياء على ما هي عليه كالملائكة المقرّبين، وفي



١. الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، عام (١٩٤٢)، ج ٢، ص ٥٣٤، وكتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور، طبعة القاهرة، ١٩٣٨م، ترجمهُ أبو ريدة، ص ١٠٠.

هـذا المقـام يكـون الإنسـان فـي رأي جماعة إخـوان الصفـا قد بلـغ مقامًا فـوق الطبيعة والشـريعة والنامـوس.[1]

٤- نظـام جماعـة إخـوان الصفـا فـي مجالسـهم: كان إخـوان الصفـا يعقـدون اجتماعاتهم سـرًا، ولا يعرف مكانَ انعقادها ولا زمانه إلّا أعضاء الجماعة فقط؛ ويقولون فـي ذلـك: «ينبغـي لإخواننـا أيدهـم الله حيـث كانـوا مـن البـلاد أن يكـون لهـم مجلس خـاص يجتمعـون فيـه أوقـات معلومة لا يداخلهـم فيه غيرهـم، يتذاكرون فيـه علومهم ويتحـاورون فيه أسـرارهم، وينبغـي أن تكون مذاكراتهم أكثرها في علـم النفس والحسّ والمحسـوس والعقـل والمعقـول والنظـروالبحـث فـي الكتـب الإلهيـة».[2] ويسـتفاد من كلام إخـوان الصفـا أنّهم كانوا لا يسـمحون للغيـربالدخول في محافلهـم إلّا بعد التأكّد مـن أحوالـه وسـيرته وذلـك من طريـق الاختبـار، إذ إنّهـم يقولون مـا نصّه:

«ينبغـي لإخواننـا أيّدهـم الله حيـث كانوا فـي البـلاد إذا أراد أحدهم أن يتخـذ صديقًا مجـدّدًا أو أخًـا مسـتأنفًا أن يختبـر أحواله، ويتعـرّف أخباره ويجرّب أخلاقه ويسـأله عن مذهبـه واعتقـاده، ليعلـم هـل يصلـح للصداقـة وصفـاء المـودّة وحقيقة الأخـوّة أم لا؟ لأنّ فـي النـاس أقوامًا طبائعهـم متغايرة خارجة عن الاعتدال، وعاداتهم رديئة مفسـدة، ومذاهبهم مختلفـة حائرة».

٥- أهـداف إخـوان الصفـا: اختلفـت الآراء وتضاربـت الأقـوال حـول مذهـب إخـوان الصفـا والهـدف الـذي كانـوا يرمـون إليـه مـن دعوتهـم، بيـن قـادح ومـادح، وليـس هنا مجال اسـتعراض تلك الآراء ومناقشـتها، وإنّما نشـيرإلى بعضها لنعطـي القارئَ صورةً إجماليّـة عن جماعة إخـوان الصفا وأهدافهم والغاية التي أنشـأوا جماعتهم من أجلها.

لقـد كشـف أبوحيان التوحيـدي عن غاية إخـوان الصفا بقوله: «كانـت هذه العصابة قد تألّفت بالعِشـرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعـوا بينهـم مذهبًـا زعموا أنّهـم قرّبوا بـه الطريق إلى الفـوز برضـوان الله، والمصيرإلى جنتـه... وصنفوا خمسـين رسـالة فـي جميع أجزاء الفلسـفة علميًّـا وعمليًّا وأفـردوا لها

١. رسائل إخوان الصفا، طبعة القاهرة، ج ٤، ص ١١٩ و ١٢٠.
٢. المرجع السابق، ج ٤، ص ١٠٥.

فهرستًا وسمّوها (رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا) وكتموا أسماءهم، وبثّوها في الورّاقين»[1]. وذهب قوم إلى أنّ إخوان الصفا ينحدرون من نسل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وكانوا يدعون إلى مذهب التشيع؛ وقال آخرون إنّهم من متكلّمي المعتزلة في العصر الأوّل.[2] إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تزال مثارًا للبحث والنقد لدى الباحثين، ولكلّ دليل يؤيّد به وجهة نظره في ضوء ما استنبطه من آراء إخوان الصفا في رسائلهم. ويقول المستشرق بارتولد في وصف هذه الجماعة: «إنّ إخوان الصفا جماعة من المفكّرين الأحرار ظهروا في البصرة في القرن الرابع الهجري، وإنّ اتحادهم يُشبّه بالجمعيّة الماسونيّة"[3].

وقد قوبلت دعوة إخوان الصفا بهجوم عنيف من مخالفيهم من المفكّرين المسلمين من أمثال أبي سليمان محمّد بن بهرام المنطقي السجستاني من معاصريهم، الذي يصفهم بقوله" "تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنّوا ما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا"[4]، ومن أمثال الإمام الغزالي الذي جاء بعدهم وطعن في مذهبهم، وغيرهما من الفلاسفة والعلماء، وليس هنا مجال لذكر أقوالهم.

٦-موضوع رسائل إخوان الصفا: يقول المستشرق "دي بور" في موضوع رسائل إخوان الصفا: "وأمّا رسائلهم فهي أشبه ما تكون بدائرة معارف مرتّبة تضمّ علوم ذلك العصر وتدلّ على أنّهم أصابوا من الرقيّ الفكريّ حظًّا وافرًا" ويقول أيضًا، لا نعرف على وجه اليقين مدى نجاح هؤلاء الإخوان في تحقيق المثل الأعلى الذي كانوا يرمون إليه"[5]، ويقول القفطي في وصف رسائلهم: "هؤلاء -إخوان الصفا- جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة الأولى ورتّبوه مقالات عدّتها إحدى وخمسون مقالة، خمسون منها في خمسين نوعًا من الحكمة، ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز، وهي مقالات مشوّقات غير مستقصاة، ولا



١. الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، طبعة القاهرة، ج ٢، ص ٥.
٢. أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي، طبعة القاهرة عام ١٣٢٦، ص ٥٨.
٣. الحضرة الإسلاميّة لبارتولد، ترجمة حمزة طاهر من التركيّة بالعربيّة، طبعة القاهرة، ص ٤٥.
٤. م.ن، ص.ن.
٥. تاريخ الفلسفة لدي بور، ترجمهُ أبوريدة، ص ٩٨.

ظاهرة الأدلّة والاحتجاج، وكأنّها للتنبيه والإيمان إلى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة"[١] فنرى أنّ القفطي يصف الرسالة الحادية والخمسين بأنّها جامعة، في حين إنّ الرسالة الجامعة رسالة مستقلّة تختلف عن مجموعة الرسائل كما يصرّح بذلك إخوان الصفا أنفسهم في رسائلهم فيقولون: "اِعلمْ أيّها الأخ البار الرحيم ... إنّا قد جعلنا في كلّ رسالة من رسائلنا فصلًا جعلناه من لبّها وخالصها إذا وُفِّق له مَن فهِمَه وعمل به نال السعادة في الدنيا والآخرة، وقد لخّصنا ما قد أوردناه في رسائلنا الإحدى والخمسين في رسالة مفردة عن الرسائل وسمّيناها (الجامعة) وهي خارجة من جملة الرسائل»[٢]، ويقولون في موضع آخر من رسائلهم: «هذه فهرست إخوان إخوان الصفا ... وهي اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم، وغرائب الحكم، وطرائف الأدب، وحقائق المعاني عن كلام خلصاء الصوفية صان الله قدرهم، وحرسهم حيث كانوا في البلاد».[٣]

وكلام إخوان الصفا هذا ينصّ على أنّ «الرسالة الجامعة» تلخيص عن مجموعة الرسائل، ومفتاح لكشف غوامضها، و إذا يكون من الخطأ أن يقول قائل إنّ «الرسالة الجامعة» تعدّ من ضمن مجموعة الإحدي والخمسين رسالة بل هي زائدة عليها، اللهم إلّا أن يُقال القفطي يقصد من كلمة «جامعة» أنّها «شاملة» فهذه اللفظة ليست اسمًا بل وصفًا.[٤]

ولقد نالت هذه الرسائل إقبالًا عظيمًا من الناس وحملها أحد رياضيّي إسبانيا إلى بلاده في أواخر القرن الرابع الهجريّ، وفي نهاية القرن الثامن الهجريّ تُرجمت بالفارسيّة لأحد وزراء تيمورلنك[٥].

هذا عرض موجز لتاريخ إخوان الصفا، ونشأتهم، ورسائلهم.[٦]



١. أخبار الحكماء للقفطي، ص ٥٨.
٢. رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ٢٩٠.
٣. المرجع السابق، ج ١، ص ٣.
٤. توجد نسخة مخطوطة بعنوان « رسالة الجامعة» في مكتبة المرحوم الدكتور كامل حسين استاذ كرسي الأدب المصري بجامعة القاهرة وهي كبيرة الحجم، ولكنّني لم أتأكد من صحة نسبتها إلى إخوان الصفا وتحتاج إلى دراسة لمعرفة هل هي الرسالة الجامعة نفسها التي يشير إليها إخوان الصفا في رسائلهم.
٥. الحضارة الإسلاميّة لبارتولد، ترجمة طاهر، ص ٤٥.
٦. ومن يطلب الاستزادة في ذلك فعليه بالرجوع إلى المصادر التاريخيّة التي تتحدّث عن هذه الجامعة

١- رسالة الحيوان: ألّفَ إخوان الصفا هذه الرسالة على غرار كتاب «كليلة ودمنة»، وهي رسالة من مجموعة رسائلهم وتتألّف من خمسة وستين فصلًا.[١] وكان لهذه الرسالة أثر كبير في موضوع القصة في اللغة العربيّة، اذ تطوّرت القصة على لسان الحيوان بعد تأليف إخوان الصفا رسالتهم هذه إلى صورة أخرى ذات مظهر خطير من ناحية الفكرة الفلسفيّة في البيئة الإسلاميّة؛ فقد نقلوها من مغزاها الاجتماعيّ والأخلاقيّ إلى الميدان الفلسفي.

وتتضمّن هذه الرسالة محاكمة طويلة بين الإنسان والحيوان أمام «بيراست الحكيم» ملك الجان، وقد أطنب إخوان الصفا في هذه المحاكمة ليثبّتوا بها دعائم مذهبهم، ويدعموا بها آراءهم الفلسفيّة، ويعدّ أكثر الباحثين هذه الرسالة من أقوى رسائل إخوان الصفا أسلوبًا ومنطقًا.

٢- غرض إخوان الصفا من تأليف رسالة الحيوان: يبيّن لنا إخوان الصفا أنفسهم في مقدّمة هذه الرسالة وختامها الغرض الذي دفعهم إلى أن يعرضوا أفكارهم الفلسفيّة بصورة الهزل والمتعة، وذلك عن طريق نقلها على لسان الحيوان، فيقولون في مقدّمة الرسالة: «إنّ الإنسان إذا كان فاضلًا خيّرًا فهو ملك كريم خيرُ البرية، وإن كان شرّيرًا فهو شيطان رجيم شر البرية، وجعلنا بيان ذلك على ألسنة الحيوانات ليكون أبلغ في المواعظ، وأبين في الخطاب، وأعجب في الحكايات، وأظرف في المسامع، وأطرف في المنافع، وأعوص في الأفكار، وأحسن في الاعتبار[٢]. ويقولون كذلك في

---

بشيء من التفصيل، ومن تلك المصادر: كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، ج٢، وكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي، وكتاب تاريخ الفلسفة «لدي بور» الترجمة لأبي ريدة، وكتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين، مج١، والمقالات التي نشرها أديب عباسي في مجلة الرسالة، الأعداد (٣٤ و٣٥ و٤٠ عام ١٩٣٤م في القاهرة)؛ والمقدمتان العلمية والتاريخية - الأولى للدكتور طه حسين والثانية لأحمد زكي باشا - لرسائل إخوان الصفا تحقيق خير الدين الزركلي طبعة القاهرة، والحضارة الإسلامية لبارتولد ترجمة حمزة طاهر، وكتاب إخوان الصفا لعمر الدسوقي، وكتاب إخوان الصفا لكلّ من عمر فروخ وعبد اللطيف الطيباوي والبولسي طبعة بيروت (والأخير نشر في مجموعة فلاسفة العرب)، وكذلك كتاب رسائل إخوان الصفا للمرحوم الدكتور حسين الهمداني - بسكون الميم نسبة إلى قبيلة همدان اليمنية - أستاذ الأدب الفارسي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وكتاب تاريخ فلاسفة العرب محمد لطفي جمعة، وغيرها من المصادر العربيّة والفارسيّة والأوروبيّة التي عرضت لاخوان الصفا.

١. انظر الرسالة الثامنة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفا.

٢. رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١٨٢.

ختام الرسالة: «اعلمْ أيّها الأخ أنّا قد بيّنا في هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب، ولا تظن بنا ظنّ السوء، ولا تعدّ هذه الرسالة من ملاعبة الصبيان، ومخارفة الإخوان، إذ عادتنا جارية على أن نكسو الحقائق ألفاظًا وعبارات و إشارات، كيلا يخرج بنا عمّا نحن فيه[1]. وهذا الغرض نفسه الذي كان يرمي إليه ابن المقفع من ترجمة كتاب كليلة ودمنة إذ يقول في باب عرض الكتاب: وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر، ويلتمس جواهر معانيه، ولا يظن أنّ نتيجته إنّما هي الإخبار عن حيلة بهيمتين -كليلة ودمنة- أو محاورة سبع لثور، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود ...، وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنّه ينقسم إلى أربعة أغراض: أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة من مسارعة أهل الهزل من الشبان إلى قراءته فتستمال به قلوبهم، لأنّ هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات ...»[2]. فألّف إخوان الصفا هذه الرسالة على لسان الحيوان تقليدًا لكتاب كليلة ودمنة ليكون الجد بصورة المتعة، ومن ثم أخطأ بعض الباحثين حيث زعموا أنّ إخوان الصفا عمدوا في رسالة الحيوان إلى نقد الأوضاع الدينيّة والسياسيّة، التي كانت تسود المجتمع الإسلامي بأسلوب رمزيّ لكي يأمنوا بطش أصحاب السلطة وولاة الحكم، ومن هؤلاء المستشرق «دي بور» حيث يقول: «وقد أخفى إخوان الصفا آراءهم الانتقاديّة في رسائلهم بعض الإخفاء، وذلك لأسباب غنية عن البيان، غير أنّ حملتهم على المجتمع وعلى الأديان الموروثة تتجلّى من غير أدنى احتياط في رسالة الحيوان والإنسان، وفيها ألبسوا آراءهم ثوبًا رمزيًّا، فقالوا على ألسنة الحيوان ما لو جاهر به أحدهم لثارت حوله الشكوك»[3] كما قيل مثل ذلك بالنسبة إلى ابن المقفع أيضًا في سبب ترجمته لكتاب كليلة ودمنة.[4]

وهذا الرأي لا يخلو من الضعف، وذلك للأسباب الآتية:

اولًا: عندما نقرأ رسالة الحيوان، ونمعن النظر في مضامينها العالية نتأكد من

١. ج ٢ ص ٣١٧.
٢. كليلة ودمنة تحقيق خليل اليازجي، طبعة بيروت ١٩٠٧م، ص ٨٣-٨٥.
٣. تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ١٠٥.
٤. وقد أثبتنا بطلان هذا الزعم في كتابنا «ابن المقفع والتيار الفارسي في تأليفه» في معرض الحديث عن باب عرض الكتاب لكليلة ودمنة.

أنّ تلك المضامين، والمفاهيم الفلسفيّة لا تخصّ عصرًا دون عصر أو طائفة دون طائفة، بل هي فكرة صالحة لكلّ زمان ومكان، بذر نواتها إخوان الصفا في القرن الرابع الهجريّ، ونشروها في ربوع العالم الإسلاميّ.

ثانيًا: إنّ إخوان الصفا كما أسلفنا يصرحون بالغرض الذي من أجله ألّفوا هذه الرسالة وذلك في مقدمتها وختامها، وكذلك في خلال عرض بعض المحاكمات، فإنّ عرض أيّ تفكير فلسفي لعامّة الشعب يحتاج إلى أسلوب قصصي سهل بسيط مشوّق ليجذب الجمهور إلى الفكرة وليبسّطها له دون حاجة إلى تصوير المفاهيم والمعاني في أسلوب فلسفي مجرّد بحيث لا يستطيع معه القارئ العادي الفهم والاستنباط، وهذا ممّا دفع إخوان الصفا إلى سكب أفكارهم بأسلوب قصصي على لسان الحيوان.

٣- موازنة بين رسالة الحيوان وبين كليلة ودمنة: ويتضح لنا ممّا تقدّم أنّ إخوان الصفا تأثّروا بابن المقفع في تأليف هذه الرسالة تأثّرًا كبيرًا بحيث يمكن أن نعدّ «رسالة الحيوان» محاكاةً لكتاب «كليلة ودمنة»، وإن لم يعترف بذلك إخوان الصفا في رسائلهم إذ ذكروا أنّ موضوعات رسائلهم مقتبسة من أربعة مصادر، أحدها: الكتب الرياضيّة والطبيعيّة التي صُنّفت على ألسنة الحكماء والفلاسفة والثاني: الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل والفرقان، والثالث: الكتب الطبيعيّة التي صُنّفت لبيان تركيب الأفلاك وحركة الكواكب وأقسام البروج، وللوقوف على أسرار فنون الكائنات من المعادن والحيوانات والنبات، والنوع الرابع وهو على حدّ تعبيرهم: «الكتب الإلهيّة التي لا يمسّها إلّا المطهّرون والملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بررة وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها»[١]. غير أنّنا عندما نقرأ رسائل إخوان الصفا نحسّ بأنهم كما قلنا سابقًا كانوا معجبين بقصص كليلة ودمنة، وخاصة قصة الحمامة المطوقة؛ فمن ذلك قولهم: «فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة في كتاب كليلة ودمنة»[٢] إذًا فليس هنالك مجال للشك بأنّ إخوان الصفا



١. رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ١٠٦.
٢. المرجع السابق، ج ١، ص ٦٢ و٦٣.

قد أفادوا من حكايات كاملة ودمنة وأمثالها في تصنيف رسالة الحيوان التي نحن بصددها في هذا المقال.

وأمّا السبب في أنّ إخوان الصفا لم يذكروا اسم كتاب كليلة ودمنة ضمن المراجع التي اعتمدوا عليها في تأليف رسائلهم فهو أنّ الأفكار الفلسفيّة التي شرحوها والآراء التي دعوا إليها في رسائلهم لم يستمدّوها من كتاب كليلة ودمنة، وإنّما أفادوا من الإطار الفنيّ القصصيّ العام الذي بثّوا فيه تلك الآراء الفلسفيّة، وقلّما استفادوا من ابن المقفع في محاكاتهم له في سرد قصصه من قرب كما فعل ابن الهبارية وابن عربشاه وصاحب «مرزبان نامه» وغيرهم من الذين ألّفوا حكايات على ألسنة الحيوانات محاكاة لكتاب كليلة ودمنة[1]. إلّا أنّ إخوان الصفا تأثّروا بابن المقفع في بعض آرائه الاجتماعيّة التي تضمّنتها حكايات كليلة ودمنة فضلًا عن تأثّرهم بالخصائص الفنيّة للكتاب».

ومهما يكن من أمر فإنّنا عندما نوازن بين رسالة الحيوان وبين كليلة ودمنة، نحسّ أنّ إخوان الصفا قد نهجوا في تأليف هذه الرسالة منهج كتاب كليلة ودمنة من ناحية الخصائص الفنيّة التي تمتاز بها حكايات الكتاب، ومنها تداخل المحاكمات، فإنّ المحاكمات في رسالة الحيوان متداخلة يتلو بعضها بعضًا وتتعاقب الواحدة تلو الأخرى من دون انقطاع ولأدنى مناسبة كما هو الشأن في كليات كليلة ودمنة، ومنها طريقة التقديم لجلسات الدفاع بجملة التساؤل والاستفهام مثل «كيف كان ذلك» أو «كيف ذلك»، ونورد لك نصًّا لكلٍّ من رسالة الحيوان وكليلة ودمنة لتقف على مدى تأثّر إخوان الصفا بابن المقفع من الناحية الفنيّة للقصّة كما قلنا آنفًا.

يقول إخوان الصفا في إحدى جلسات الدفاع لزعيم السباع الذي قد أناب عن نفسه كليلة أخا دمنة للترافع أمام المحكمة: «فلمّا بلغ زعيم السباع إلى هذا الموضع من الكلام قال له زعيم الإنس: أمّا أنتم يا معشر السباع فسبيلكم أن تسكتوا، وتستحوا، ولا تتكلّموا. قال له كليلة: ولم ذلك؟ قال: لأنه ليس من الطوائف الحضور ها هنا جنس أشرَ منكم معشر السباع، ولا أقسى قلوبًا، ولا أقل نفعًا، ولا أكثر ضررًا،

١. وقد أفردنا لهذا البحث بابًا مستقلًا في كتابنا «ابن المقفع والتيار الإسلاميّ في تأليفه».

ولا أقلّ رحمة، ولا أشد حرصًا على أكل الجيف وطلب المعاش. قال: كيف ذلك؟ قال: لأنكم تفترسون معشر السباع هذه البهائم والأنعام بمخالب حداد فتخرجون جلودها وتكسرون عظامها وتشربون دماءها وتنهشون لحومها بلا رحمة عليها ولا فكرة فيها ولا رفق بها. قال زعيم السباع: منكم تعلّمنا وبكم اقتدينا فيما تعملون في هذه البهائم. قال الإنسي: كيف كان ذلك ... إلخ».[1]

وهنا الأسلوب الفنيّ نفسه الذي ألّف به ابن المقفع قصص كليلة ودمنة فمثلًا يقول في باب الأسد والثور على لسان «دمنة» -ابن آوى- مخاطبًا «شتربة»[2]: فإنّ من حقّر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى؛ قال شتربة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنّ طائرًا من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه في ساحل البحر ومعه زوجة له، فلمّا جاء أوان تفريخها قالت الأنثى للذكر: لو التمسنا مكانًا حريزًا نُفرّخ فيه فإنّي أخشى من وكيل البحر إذا مدّ الماء أن يذهب بفراخنا، فقال لها: أفرخي مكانك ... فإنّه لا يفعل ذلك؛ فقالت له: ما أشد تعنّتك! أما تذكر وعيده وتهديده إيّاك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبى أنْ يطيعها، فلمّا أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له: إنّ مَن لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين؛ قال الذكر: وكيف كان ذلك: ... إلخ.[3]

ومن الوجوه المتشابهة كذلك بين رسالة الحيوان وبين كليلة ودمنة طريقة عرض جلسات المحاكمة حيث تنعقد أمام رئيس المحكمة ملك الجان[4]، ويعلن افتتاح الجلسة بتوجيه السؤال إلى أحد الخصمين الممثلين أمام المحكمة -الإنسان والحيوان- ثم يقوم كلّ واحد منهما بالدفاع عن نفسه وبني جنسه، وهكذا تستمر



١. رسائل إخوان الصفا، ج ٢، ص ٢٧٨.
٢. دمنة اسم لابن آوى، وشتربة اسم للثور، وكلاهما من رجال حاشية الأسد، ومن أبطال قصة الأسد والثور التي وردت في الباب الأول من أبواب كليلة ودمنة.
٣. كليلة ودمنة تحقيق نائل المرصفي، مطبعة القاهرة، ص ١٣٨- ١٤٠.
٤. واسمه كما مضى «بيراست الحكيم» الملقب بشاه مردان -سيد الرجال- حاكم منطقة تقع في في جزيرة «صاغون» في وسط البحر الأخضر مما يلي خط الاستواء - وهذه الجزيرة أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة - والملك الوزير يدعى «بيراز» ومن الظريف أنّ كلمة «شاه مردان» فارسية ومركبة من «شاه»: الملك و«ومردان» جمع مرد: الرجال، وتطلق الأوساط الشعبية في إيران هذا اللقب على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وخاصة المتصوفة منهم.

جلسات المحاكمة كحلقات متواصلة، وهذا الموقف من ملك الجان يشبه تمامًا موقف دبشليم الملك أحد البطلين في حكايات كليلة ودمنة حيث يدور أمامه الحوار بين الحيوانات على لسان وزيره «بيدبا الفيلسوف».

فنرى أنّ ملك الجان يعقد جلسات المحاكمة بتوجيه السؤال إلى أحد الخصمين كما يفعل ذلك دبشليم الملك عندما يعقد جلسات السمر مع وزيره «بيدبا» ويوجّه إليه السؤال ليضرب له مثلًا لما دار بين شخصين من الأحداث والخطوب وذلك في بداية كل قصّة رئيسيّة من قصص الكتاب التي تُسمّى بأبواب الكتاب أمثال قصّة الأسد والثور، وقصّة الفحص عن أمر دمنة، وقصّة الحمامة المطوقة، وقصّة الأسد وابن آوى. فجلسات المحاكمة في رسالة الحيوان تشبه أبواب كتاب كليلة ودمنة، كما أنّ الفصول التي تتلو كلّ جلسة من تلك الجلسات تشبه الحكايات الفرعيّة التي تتلو كلّ حكاية رئيسيّة من كتاب كليلة ودمنة؛ فإنّ الإطار الفنيّ الذي ألّف فيه إخوان الصفا رسالة الحيوان هو الإطار الفنيّ نفسه الذي ألّف فيه ابن المقفع حكايات كليلة ودمنة.

هذا وتشابه رسالة الحيوان وكتاب كليلة ودمنة لا في تداخل المحاكمات وطريقة عرضها فحسب، بل انّهما يتشابهان في توارد كثير من أسماء الحيوانات التي أُسندت إليها الأدوار في كلّ من القصة والمحاكمة، فنجد مثلًا في رسالة الحيوان فصلًا من المحاكمة على لسان كليلة أخي دمنة مندوب الأسد -أبي الحارث- ليشترك مع سائر الوحوش في جلسات المحاكمة[1]. ومن المعروف أنّ هذين الاسمَين هنديّان وكان أصلهما «كَرَتَكا ودَمَنَكا» وقد دخلا في اللغة العربيّة لأوّل مرّة بعد تحريفهما إلى كليلة ودمنة بواسطة ابن المقفع. وكذلك يشبه الأسد في رسالة الحيوان الأسد في كليلة ودمنة، فالأوّل يلعب دور ملك السباع ويشاور من حوله من الوحوش في صفات الملك وعمن يستحقّ أن يمثل الملك في جلسات المحاكمة مندوبًا عنه[2]، كما هو الحال بالنسبة إلى دور الأسد في باب «الفحص عن أمر دمنة» حيث



١. رسائل إخوان الصفا، ج ٢، ص ٢٧٦.
٢. رسائل إخوان الصفا، ج ٢، ص ٢٠٣ و٢٠٦.

يشاور من حوله من الوحوش عند محاكمة دمنة بعد أن ثبتت إدانته بأنّه كان سببًا في الايقاع بين الأسد والثور ممّا أدى إلى مصرع الثور، ونرى أيضًا أنّ النمر في رسالة الحيوان يحتلّ مكانة الصدارة بين أفراد حاشية الأسد، ويلعب دور الناصح الأمين للأسد، ويؤخذ برأيه، كما أنّ النمر في باب «الفحص عن أمر دمنة» يُعدّ من أخصّ أصحاب الأسد ومن أقرب أفراد حاشيته إليه، وهو الذي كشف عن أمر دمنة، وأبلغ أمّ الأسد عن المؤامرة التي كان قد دبرها دمنة ضّد الأسد، وحرضه على قتل شتربة.[1]

وأمّا قصة تواصل إخوان الصفاء ومعاونة بعضهم بعضًا، فإنّ لها - كما أشرنا في مستهل حديثنا عن رسالة الحيوان- صلة بقصّة الحمامة المطوقة من حيث فكرتها العامّة في تصافي الإخوان، وثمرة هذا الصفاء، وإن كان إخوان الصفا قد عمّقوا معنى هذا التصافي بما يتفق ومبادءَهم الفلسفيّة المبنيّة على اعتقادهم في عالم الغيب (ما وراء الطبيعة)؛ وقبل أن نشير الى هذه المعاني التي انفردوا بها نورد نصّ هذه القصة: «ينبغي أن نبيّن كيف يكون تواصل إخوان الصفا، وكيف تكون معاونة بعضهم بعضًا في طلب معيشة الدنيا، وماذا ترى كيف يكون حال من سبقته المنية قبل صاحبه كيف يكون عيش الباقي منهم بعد صاحبه. ذُكِرَ أنّ مدينة كانت على رأس جبل في جزيرة من جزائر البحر مخصبة كثيرة النعم رخية البال طيبة الهواء عذبة المياه حسنة التربة كثيرة الأشجار لذيذة الثمار كثيرة أجناس الحيوانات بحسب ما تقتضيه تربة تلك الجزيرة وأهويتها ومياهها، وكان أهلوها أخوة وبني عم بعضهم لبعض من نسل رجل واحد، وكان عيشهم أهنأ عيش يكون بتودّد ما كان بينهم من المحبة والرحمة والشفقة والرفق، بلا تنغيص من الحسد والبغي والعداوة وأنواع الشر كما يكون بين أهل المدن الجائرة المتضادة الطباع المتنافرة القوى المتشتتة الآراء القبيحة الأعمال السيئة الأخلاق؛ ثم إنّ طائفة من أهل تلك المدينة الفاضلة ركبوا البحر فكُسِرَ بهم المركب ورمى بهم الموج الى جزيرة أخرى فيها جبل وعرٌ فيه أشجار عالية وعليها ثمار نادرة فيها عيون غائرة، ومياهها كدرة، وفيها مغارات مظلمة، وفيها سباع ضارية، وإذا عامّة أهل تلك الجزيرة قردة، وكان



١. راجع كليلة ودمنة ، تحقيق نائل المرصفي ، طبعة القاهرة ، ص ١٥٢.

في بعض جزائر البحر طير عظيم الخلقة شديد القوة قد سُلّط عليها في كلّ يوم وليلة يكرّ عليهم، ويختطف من تلك القردة عدّة، ثم إنّ هؤلاء النفر الذين نجوا من الغرق تفرقوا في الجزيرة وفي أودية ذلك الجبل، يطلبون ما يتقوّتون به من ثمارها لما لحقهم من الجوع، ويشربون من ماء تلك العيون، ويستترون بأوراق تلك الأشجار، يأوون بالليل إلى تلك المغارات، ويعتصمون بها من الحر والبرد، فأنِست بهم تلك القرود وأنِسوا بها، إذ كانت أقرب أجناس السباع شبهًا لصورة الناس، فولعت بهم إناث القردة وولع بها من كان به شبق ... وتناسلوا وكثروا، وتمادى بهم الزمانُ فاستوطنوا تلك الجزيرة، واعتصموا بذلك الجبل، وألِفوا تلك الحال، ونسوا بلدهم ونعيمهم وأهاليهم الذين كانوا معهم بديًا، ثم جعلوا يبنون من حجارة ذلك الجبل بنيانًا، ويتخذون منها منازل، ويحرصون في جمع تلك الثمار، ويدخرها من كان منهم شرِهًا، وصاروا يتنافسون على إناث تلك القرود، ويغبطون من كان منهم أكثر حظًا من تلك الحالات، وتمنوا الخلود هنا، وانتشبت بينهم العداوة والبغضاء، وتوقّدت نيران الحرب، ثمّ إنّ رجلًا منهم رأى في ما يرى النائم كأنّه قد رجع إلى بلده الذي خرج منه، وأنّ أهل تلك المدينة لما سمعوا بمجيئه استبشروا، واستقبله خارج تلك المدينة أقرباؤه فرأوه قد غيّره السفر والغربة، فكرهوا أن يدخل المدينة على تلك الحال، وكان على باب المدينة عين من الماء فغسلوه، وحلقوا شعره، وقصّوا أظافره، وألبسوه الجديد، وبخّروه وزيّنوه، وحملوه على دابة، وأدخلوه المدينة، فلّما رآه أهل تلك المدينة استبشروا به، وجعلوا يسألونه عن أصحابه، وسفرهم وما فعل الدهر بهم، وأجلسوه في صدر المجلس في المدينة، واجتمعوا حواليه يتعجبون منه، ومن رجوعه بعد اليأس منه، وهو فرحان بهم وبما نجّاه الله عزّوجل من تلك الغربة وذلك الغرق، ومن صحبة تلك القرود وتلك العيشة النكدة: وهو يظن أنّ ذلك كما يراه في اليقظة، فلمّا تنبّه إذا هو في ذلك المكان بين القرود، فأصبح حزينًا منكسر البال زاهدًا في ذلك المكان مغتمًا متفكرًا راغبًا في الرجوع إلى بلده، فقصّ رؤياه على أخ له، فتذكّر ذلك الأخ ما أنساه الدهر من حال بلدهما وأقاربهما وأهاليهما والنعيم الذي كانا فيه، فتشاورا فيما بينهما، وأجالا الرأي وقالا: كيف السبيل إلى الرجوع

وكيف النجاة من هنا؟ فوقع في فكرهما وجه لحيلة بأنهما يتعاونان ويجمعان من خشب تلك الجزيرة ويبنيان مركبًا في البحر، ويرجعان إلى بلدهما، فتعاقدا على ذلك بينهما عهدًا وميثاقًا أن لا يتخاذلا ولا يتكاسلا بل يجتهدا اجتهادَ رجل واحد في ما عزما عليه، ثم فكّرا أنّه لو كان رجل آخر معهما لكان أعون لهما على ذلك، وكلّما زاد عددهم يكون أبلغ في الوصول إلى مطلبهم ومقصدهم، فجعلوا يذكّرون إخوانهما بأمر بلادهم ويرغّبونهم في الرجوع، ويزهدونهم في الكون هناك، حتى التأم جماعة من أولئك القوم على أن يبنوا سفينة يركبوا فيها ويرجعوا إلى بلدهم، فبينما هم في ذلك دائبون في قطع الأشجار ونشر الخشب لبناء تلك السفينة، إذ جاء ذلك الطير الذي كان يختطف القرود فاختطف منهم رجلًا وطار به في الهواء ليأكله، فلمّا أمعن في طيرانه تأمله فإذا هو ليس من القرود التي اعتاد أكلها، فمر به طائرًا حتى مرَّ به على رأس مدينته التي خرج منها، فألقاه على سطح بيته وخلّاه، فلمّا تأمل ذلك الرجل إذا هو في بلده ومنزله وأهله وأقربائه، فجعل يتمنى لو أنّ ذلك الطير يمرّ في كلّ يوم، ويختطف منهم واحدًا بعد واحد، ويلقيه إلى بلده كما فعل به. وأما أولئك القوم فإنهم بعد ما اختطفه الطير من بينهم جعلوا يبكون عليه محزونين على فراقه لأنهم لا يدرون ما فعل به الطير، ولو أنهم علموا بحاله وما صار إليه لتمنّوا ما تمنّى لهم أخوهم»[1]. وقد شرح إخوان الصفا أنفسهم المغزى عقب إيرادهم لها بقولهم: «فهكذا ينبغي أن يكون اعتقاد إخوان الصفا في من قد سبقته المنيّة قبل صاحبه، لأنّ الدنيا تشبه تلك الجزيرة، وأهلها يشبهون تلك القردة، ومثل الموت كمثل ذلك الطير، ومثل أولياء الله كمثل القوم الذين كُسر بهم المركب، ومثل دار الآخرة كمثل تلك المدينة التي خرجوا منها، فهذا اعتقاد إخواننا الكرام في معاونتهم في الدنيا، وما يعتقدون فيمن سبقته المنيّة قبل إخوانه».

فنرى أنّ إخوان الصفا قد رمزوا إلى دنيا الشهوات بالقرود، وإلى من سقطوا في عالم الرذيلة واستهوتهم هذه الفانية وكان همّهم هو التناكح والتناسل وإرضاء الغريزة الحيوانيّة فحسب بأولئك الذين انحرفوا وضلّوا حتى نسوا بلدهم الأصيل وهو العالم

١. كتاب رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ١٠٣-١٠٥.

الآخر الذي أتت منه أرواحهم، وأمّا الصفوة منهم فلم تشغلهم المادة عن المعنى ولم تستهوهم تلك المظاهر الدنيويّة، بل انصرفوا الى التفكير الاجتماعيّ الذي يساعدهم على راحتهم النفسيّة وسعادتهم الموقوتة في هذه الدار الفانية بمعاونة بعضهم بعضًا، وبثّ روح المحبة بين الطبقات، والبعد عن التعصب لمذهب دون مذهب، والتحمّس لعقيدة دون عقيدة، وعرفوا أنّ السعادة لا تتم إلّا بتضافر الجهود للخروج من عالم المادة، والتوجّه إلى الرقي، والكمال بأرواحهم الطاهرة، وأنفسهم الزكية حتى تلبي دعوة باريها، وترجع إلى ربها راضية مرضية».

ونستلخص من تعليق إخوان الصفا على هذه القصة أنهم يرون أنّ موطنهم الأصيل عالم الروح ودار السعادة الخالدة، ولا يمكن أن يصل أحد إلى هذا العالم إلّا إذا صفت روحه، وخلصت سريرته، وتعاون مع إخوانه وأصدقائه بالإيمان الصادق الذي يقود المرء إلى العمل الصالح.

ونحن إذ نختم مقالنا هذا لا نستطيع أن ندّعي أنّنا قد بلغنا غاية المطاف في ما كنا نقصد إليه بل إنّ المجال لا يزال متسعًا أمامنا لاستخراج نتائج أخرى بالموازنة بين رسالة الحيوان وبين كتاب كليلة ودمنة إذ سيكون لهذه النتائج أهميتها البالغة في ميدان الدراسات المقارنة.